التلمود وأدب المعلّمين

الخوري بولس الفغالي*

يُدعى الشعب اليهوديّ، شأنه شأن الشعب المسيحيّ، أهل الكتاب. لقد استُودِعَ التوراة في المعنى الواسع، أي العهد القديم بأجزائه الثلاثة: أسفار موسى الخمسة، الأنبياء، سائر الكتب. وهم يقرأون هذا الكتاب المقدّس في اللغة العبريّة. ولكن لا يكفي أن نعرف التوراة لنفهم الشعب اليهوديّ. فهذه التوراة التي تشكّل الشريعة المكتوبة، تجد ما يقابلها في الشريعة الشفهيّة أي التلمود. فإذا كانت الحياة اليوميّة لدى اليهوديّ المتديّن تتّصف بممارسة الوصايا الستمئة وثلاث عشرة التي نجدها في البنتاتوكس أو الأسفار الخمسة، فهو لا يستطيع ذلك إلّا بفعل الشروح التي يقدّمها شرّاح التلمود. وهكذا نستطيع أن نصف الشعب اليهوديّ بأنّه شعب التعليم والتلمذة (من هنا التلمود)، شعب التقليد والسنّة. هذا لا يعني أنّنا نتقص من قيمة كتاب العهد القديم، بل نحن لا ننسى أنّ الشريعة المكتوبة لا يمكن أن تُطبَّق أو تفهم بدون الشريعة الشفهيّة.

من أجل ذلك، نحاول أن نتعرّف إلى التلمود. نعود إلى جذور التقليد الشفهيّ قبل أن يتدوّن في المِشْناة[1]. ونلتقي بعض المعلّمين قبل أن نعود إلى التلمود بشكل حصريّ ونتوقّف عند علاقته بالمسيحيّة.

(*) باحث في الكتاب المقدّس.

(١) أطلب، في شرحها، أسفل الصفحة التالية.

١ - جذور التقليد الشفهيّ

ينطلق التقليد كلّه من تأويل المعلّمين الذي يصل بالمؤمن إلى ما يستطيع أن يطبّقه في الحياة اليوميّة. ونحن نأخذ مثالًا على ذلك يرتبط بصلاة «شماع» أي اسمع يا إسرائيل، الربّ إلهنا هو الربّ الواحد. هذه الصلاة التي يتلوها المؤمن صباحًا ومساءً وقد تألّفت من خر ١٣ : ١-١٠، ١١-١٦؛ تث ٦ : ٤-٩؛ ١١ : ١٣-٢١، تورد ما يلي: «ولتكن هذه الكلمات التي آمرك بها اليوم في قلبك... إجعلها وشمًا على يدك وعصائب بين عينيك» (تث ٦ : ٦-٨). ما هي هذه العصائب؟ هي تدلّ، في تقليد الرابينيّين أو المعلّمين، إلى «تِفِليم» وهي علب صغيرة من الجلد الأسود تتضمّن نصّ «شماع» مدوّنًا على الرقّ، فيحملها اليهوديّ في صلاته الصباحيّة والمسائيّة. هناك عصائب تُوضع على الذراع، وأخرى على الجبين. لولا التقليد الشفهيّ، لما استطاع المؤمن أن يطبّق هذه الكلمة على نفسه. هذا ما نقرأه عنه في إنجيل متّى (٢٣ : ٥-٦) حيثُ يُذكُرُ الفرّيسيّين في بعض من ممارساتهم: «يجعلون عصائبهم عريضة على جباههم وسواعدهم، ويطوّلون أطراف ثيابهم، ويحبّون مقاعد الشرف في الولائم ومكان الصدارة في المجامع».

أ - المشناة والغمارة

إنّ التقليد الشفهيّ الذي اتّخذ اسم التلمود بشكل عامّ، يتألّف من قسمين متمايزين: المشناة والغمارة (أو: الجمارة). يرتبط القسم بالقسم الآخر رباطًا وثيقًا، ولكنّهما يختلفان في نقاط عديدة. دوُن الأوّل في العبريّة، والثاني في الآراميّة. جُمعت المشناة في القرن الثاني ب.م.، أمّا نهاية الغمارة ففي نهاية القرن السابع.

أوّلًا: المشناة

المشناة تعني في الأصل التكرار (راجع ثنى في العربيّة والثنيّ أي الأمر الذي يعاد مرّتين). كما تعني في لغة القرن الثاني ب.م.، تعليم

الحقوق الشفهيّ. هذا التعليم كان يُعطي في «تكرار» المبادئ القانونيّة وتطبيقاتها المختلفة من أجل إدخالها في عقول التلاميذ. وتعني المشناة أيضًا المادّة «المكرّرة» أي التي انتقلت انتقالًا شفهيًّا كبند تعليميّ خاصّ بمعلّم من المعلّمين أو كجسم من الشرائع غير المكتوبة. في هذا المجال، تقابل المشناة «المقرا» (المقروء) أي ما يُقرأ قراءة، فنجده شرائع في الكتاب المقدّس. وفي النهاية، المشناة هي مجموعة تضمّ جميع القرارات السلوكيّة (هلكه، من هلك أي سلك في العبريّة) التي تفرض نفسها على كلّ يهوديّ متديّن، فتشكّل نواة التلمود، تلمود أورشليم وتلمود بابل. هذه القراءات التي تترك جانبًا العدد الكبير من جدالات المعلّمين وبراهينهم، انتقلت بشكل شفهيّ من المعلّم إلى التلميذ قبل أن يدوّنها رابي يهود هاناسي، أي المعلّم يهودا الأمير، أو البطريرك يهودا الأوّل، حوالى سنة ٢٠٠.

كيف تكوّنت المشناة؟ نستطيع القول إنّها نتيجة نشاط قانونيّ قام به المعلّمون اليهود منذ القرن الثاني ق.م. فكما كانت شريعةٌ ثانية على مستوى الكتاب المقدّس، حين انتقل العبرانيّون من عالم البدو إلى عالم الحضر، كذلك جاءت شرائع المشناة تواجه ظروفًا جديدة. فهذه الظروف فرضت شرحًا جديدًا وتفاصيل دقيقة تُكيّف شريعة موسى التي لا يمكن أن تتبدّل، وتطبّقها على طرق من الحياة جديدة. بدأ العملَ في هذا المجال الكتبةُ (سفريم، من سفر الكتاب في العربيّة) ومعلّمو الشريعة، فكوّنوا فئتين: فئة تقدّم تفسيرًا واسعًا للشريعة، وقد ارتبطت بالصادوقيّين، وفئة تقدّم تفسيرًا ضيّقًا فتحاول أن تلغي كلّ خطر في تجاوز الشريعة، وتدخل فرائض جديدة. هذه الفئة الثانية ترتبط بالفرّيسيّين الذين أرادوا الانفصال عن الشعب الجاهل، فجعلوا من تفاسيرهم للتوراة والفرائض المضافة شريعة على غرار شريعة موسى، وسهروا على نقل تراث الآباء نقلًا تامًّا.

بعد دمار أورشليم سنة ٧٠ ب.م. زال الصادوقيّون من الوجود، كما زالت فئات أخرى مثل الكينة، فصار الفرّيسيّون المعلّمين الذين لا ينازعهم أحد هذه المهمّة في العالم اليهوديّ. وهكذا حلّ محلّ معلّمي

الشريعة، الردّادون (أو: تنائيم) الذين علّموا بشكل خاصّ في الجليل، في مدرسة صفوريّة ومدرسة طبريّة، فدُوّنت تعاليمهم في المشناة. وما نجده الآن بين أيدينا، هو عمل أربعة أجيال من الردّادين. هناك أوّلًا نواة قديمة تذهب بعيدًا في الزمن. في الجيل الثاني (١٠٠-١٣٠) نجد رابي (المعلّم) عتيبة، رابي مئير، رابي يهودا... وأضاف الجيل الثالث (١٣٠-١٦٠) موادّ جديدة. وفي الجيل الرابع، أعطى رابي يهودا هاناسي الشكل الرسميّ للمشناة فصارت قاعدة ترتكز عليها السلوكيّات في العالم اليهوديّ.

جاءت المشناة في ستّة نظم أو أقسام (سدريم)، وفي ستّين مقالًا (في النسخات المطبوعة نجد ٦٣ مقالًا)، وفي خمسمئة وثلاثة وعشرين فصلًا (أو: ٥٢٤ أو ٥٢٥ بحسب عدّ آخر). تتحدّث النظم عن ثمار الحقول (زرعيم، الزراعة والعشور)، عن الزمن المحدّد (موعد، السبت والأعياد) عن النساء (نشيم، الزواج والطلاق)، عن الأضرار (نزيقيم، الحقّ القانونيّ والجزئيّ)، عن المقدّسات (قدشيم، الذبائح وشعائر العبادة)، عن الطهارة (طهوروت، الطاهر والنجس).

ثانيًا: الغمارة

أنهى يهودا هاناسي تدوين المشناة فصار النصُّ الذي قدّمه أساسَ درس الشريعة في جميع أكاديميّات فلسطين وبابلونية. حاول المعلّمون أن يفهموا الطريق الذي أتاحت وضع السلوكيّات في قانون، وبحثوا عن الأركان البيبليّة المستعملة، كما عن مؤلّفي مختلف النصوص. بدأ هذا العمل في بداية القرن الثالث ق.م. وتمّ في القرن السادس، كما كان له امتداد في القرن السابع.

مَن قام بهذا العمل؟ التوّالون (أمورائيم، بين أمر في السريانيّة، قال). كانوا خطباء ومفسّرين. هم حكماء أقاموا في بابلونية كما في فلسطين. ظلّوا ناشطين حتّى تدوين تلمود بابل بشكل نهائيّ، حوالى سنة ٥٠٠. إنّ جدالات هؤلاء الحكماء التي امتدّت على ثمانية أجيال في

بابلونية وخمسة في فلسطين، كوّنت الجزء الأكبر من تلمودَي فلسطين وبابل والمدراش (درس وتأمّل) الإخباريّ. كانوا يوردون نصّ المشناة، ثمّ يطرحون السؤال: من أين نعرف ذلك؟ أي على أيّ آية يتأسّس هذا القرار السلوكيّ أو على أيّ مبدأ من مبادئ الشريعة؟

تنطلق الغمارة من المشناة. هذا يعني أنّ الشرائع التي تقدّمها لا تحمل الثقل الذي تحمله شرائع المشناة. ولكنّها تتفوّق عمّا جاء بعدها. ولكن ما هي الغمارة؟ تعود اللفظة إلى «غمر» الآراميّة التي تعني أنهى، أتمّ، أكمل. وهكذا تمّ في الغمارة ما تعلّمه التلميذ من التقليد.

ينقسم نصّ الغمارة إلى وحدات تتبع المشناة فتحلّل نصوصها تحليلًا أدبيًا، ثمّ تقابلها مع نصوص مشابهة ترد في مراجع أخرى هي «بارايتا» أو التعليم البراني، أو الذي يرد خارج المشناة. وما انحصرت جدالات الغمارة بمضمون المشناة وأسلوبها، بل امتدّت إلى مسائل نظريّة حول الذبائح والهيكل. وهي ما انحصرت أيضًا في مسائل تشريعيّة، بل حاولت أن تدرس (مدراش) النصّ البيبليّ، ولا سيّما في وجهاته الإخباريّة المتعلّقة بالأشخاص والأحداث. وفي النهاية، وصلت إلى مبدأ شريعة جديد مع قرار قانونيّ نهائيّ.

نشير هنا إلى وجود نسختين للغمارة. واحدة ترتبط بتلمود أورشليم، وأخرى ترتبط بتلمود بابل. أمّا غمارة تلمود أورشليم فقد دوّنت في الآراميّة الغربيّة بشكلها الجليليّ. وغمارة تلمود أورشليم دوّنت في الآراميّة الشرقيّة. ثلثها يتعلّق بالسلوكيّات والثلثان الباقيان بموادّ مدراشيّة وإخباريّة.

ب – مدارس التفسير

أعطي الوحي كلّه في التوراة، وجاء أدب المعلّمين يحلّله. هذا ما يُسمّى المِدْراش الذي هو الدرس والبحث والتأمّل (درش في العبريّة). إنّ الفعل العبريّ يشير دومًا إلى الله. ونحن نقرأ في مز ٣٤: ٥: «طلبتُ (بحثت من) الربّ فاستجاب لي». وفي أي ٥: ٨: «أنا طلبتُ الله». ونقرأ

في ابن سيراخ (٥١ : ٢٣): «إقتربوا أيّها الجهّال، وتعالوا لتقيموا في بيت التعليم»، بيت «هـ مدرش» أو بيت الدرس والمدرسة. وبعد ذلك، سيعني فعل «درش» فسّر النصّ الكتابيّ.

وهكذا فالمدراش يعني التأويل الكتابيّ. هناك المدراش السلوكيّ (هلكه) الذي يوضح القواعد القانونيّة في التوراة، والمدراش الإخباريّ (ها غاده) الذي يشرح النصّ البيبليّ شرحًا استعاريًّا ليستخلص ما يتضمّنه هذا على المستوى الخلقيّ.

أوّلًا: قواعد التفسير

يروي تلمود بابل وترسفتا (إضافة، وهو كتاب يبدو منظّمًا مثل المشناة) أنّ هلّال وُلد في بابلونية. وورد في شأنه الحدث التالي: «وهذه القاعدة كانت مجهولة لدى أبناء باتير. في سنة من السنوات، وقعت عشيّة الفصح يومَ سبت. ولمّا نسوا القاعدة، ما عادوا يعرفون إن كانت ذبيحة الفصح تغلب السبت فتُقدَّم. تساءل أبناء باتير إذًا إن كان هناك مَن يعرف هل تقدَّم الذبيحة أم لا. فأجابوهم: «هناك شخص وصل توًّا من بابل. درس لدى شمعيا وأبطاليون، وهما حجّتان في عصره. هو وحده يستطيع أن يقول إن كانت ذبيحة الفصح تتفوّق أم لا على السبت». فأرسل أبناء باتير مَن يبحث عن هلال ويطرح عليه هذا السؤال.

«فقدّم هلّال جوابًا برّر فيه بالتفصيل أسلوب تفسير التوراة». وينتهي الحادث كما يلي: «ومع أنّ هلال ظلّ يقدّم لأبناء باتير تعليمه طوال النهار، بيّنوا أنّهم يعارضون تعليمه. ولكن حين حلف لهم بأنّه ينقل إليهم بالحقيقة تعليم شمعيا وأبطاليون، قاموا وسمّوه رئيسهم» (تلمود أورشليم، الفصح، ٦ : ١).

فهلّال هذا عُرف بسبعة مبادئ للتفسير. الأوّل هو بالأحرى برهان منطقيّ يوازي بين شريعتين، ويُبرز الشريعة الضيّقة. نقرأها في إر ١٢ : ٥: «تجري مع المشاة فتتعب، فكيف تسابق الأفراس»؟ والثاني، تحليل جذور الكلمات. ينطلق التفسير من كلمة أو عبارة نقرأها في سياق آخر.

الثالث، ننطلق من مجموعة حالات، ونستنتج القاعدة بالقياس. الرابع، نقابل بين آيتين في الكتاب المقدّس. الخامس، هناك الحالات الخاصّة والحالات العامّة. السادس، شرح آية بمقطع مشابه. السابع، شرح النصّ بسياقه. مثلًا، يقول خر ٢٠: ١٥: لا تسرق. تقودنا القراءة العاديّة إلى الحديث عن سرقة خيرات ماديّة. ولكنّ السياق يجعلنا نفهم أنّنا أمام سرقة إنسان من أجل بيعه. جاءت قواعد هلال أساسًا لكلّ تفسير يهوديّ، فأخذ بها جميعُ المعلّمين. ولكن أضاف ناحُوم الغمزاوي، وهو روّاد من الجيل الأوّل (نهاية القرن الأوّل ب.م.)، قاعدة التوسيع والتضييق. مثلًا، نقرأ في تك ١: ١: «في البدء خلق الله (إت) السماء و(إت) الأرض». معنى «إت» هو معنى توسيعيّ. حين خلق الله السماء خلق معها الكائنات السماويّة. وحين خلق الأرض، خلق معها الأشجار والنبات.

وانطلق رابّي إسماعيل من الثابتة التالية: «تتكلّم التوراة لغة البشر». وقدّم ثلاث عشرة قاعدة دخلت في صلاة الصبح لدى اليهود المتديّنين. وأخيرًا، هناك قواعد أليعازر بن يوسي الجليليّ (عاش حوالى سنة ١٥٠)، وقد اشتهر في المدراش الإخباريّ، فقال فيه تلمود بابل: «حين تدرك في «هاغاده» أقوال رابي أليعازر بن يوسي الجليليّ، لتأخذْ أُذنك شكل قمع» (مقال المحلّلات ٨ ب). هكذا لا تُضيّع شيئًا ممّا يُصبّ في أذنك.

ثانيًا: كتب التفسير

هناك أوّلًا الدروس السلوكيّة (هَلَكَه). وأوّلها «ملكتا» (نهج، قاعدة) رابي اسماعيل التي تتوقّف عند خر ١٢-٢٣، ٣١، وتجعل النصّ في تسعة مقالات. ثمّ نجد «سفرا» أي الكتاب الكتاب. هو سفر اللاويّين الذي هو نقطة انطلاق التعليم التقليديّ. نحن في الواقع أمام تفسير سلوكيّ كامل لسفر اللاويّين كما يُقرأ في ليتورجية يوم السبت. ونشير أيضًا إلى تفسير سفر العدد، وتفسير سفر التثنية، وكلاهما يهتمّان أوّل ما يهتمّان بتبرير السلوكيّات على أساس النصّ البيبليّ. ولكن هذا لا ينفي وجود توسّعات إخباريّة في مثل هذه الكتب.

وهناك ثانيًا الدروس الإخباريّة (هاغاده). نحن أمام تفسير وتأويل لأسفار البيبليا، أمام مجموعة عظات تعليميّة قالها هذا الرابي (المعلّم) أو ذاك يوم السبت. أمّا أقدم مدراش تأويليّ، فهو تفسير سفر التكوين (تكوين ربا) الذي يستعمل في ما يستعمل الترجوم (تفسير حرّ للنصّ الكتابيّ في اللغة الآراميّة). ويتضمّن تفسير سفر الخروج شرحًا تأويليًّا للفصول الأولى، ثمّ سلسلة من العظات. ويتضمّن مدراش اللاويّين سبعًا وثلاثين عظة على نصوص تُقرأ في السنة الليتورجيّة. ويتألّف تفسير العدد من توسّعات إخباريّة وعظات. وكذا نقول عن تفسير التثنية (تثنية ربا). وهناك مواعظ تتعلّق بيوم السبت والأعياد.

٢ - المعلّمون في التلمود

يستحيل علينا في هذا المقال أن نبتمّ بكلّ المعلّمين (الرابيّين) الواردة أسماؤهم في التلمود. هي لائحة طويلة. ومعلوماتنا ضئيلة عن عدد كبير منهم. لهذا سنكتفي بأربعة: هلّال وشمّاي، ثمّ يوحنّان بن زكّاي ورابّي عَقيبه.

أ - هلّال وشمّاي

إذا كان أدب المعلّمين صدى لآراء مختلفة، فالتعارض بين مدرسة هلّال ومدرسة شمّاي قد طَبَعَ بطابعه الحضارة اليهوديّة. وهذا ما دفع التلمود البابليّ لأن يقول: «حين نما عدد تلاميذ شمّاي وهلّال، الذين لم يستفيدوا بما فيه الكفاية من تعاليم معلّمَيْهم (هذين)، تكاثرت الاختلافات في الرأي، في إسرائيل، فظنّ الناس أنّ هناك توراتين لا توراة واحدة» (سنهدرين ٨٨ ب).

بحسب المشناة (مثال الآباء، ١: ١-٢) تمّ انتقال التوراة الشفهيّة بفضل سلسلة تقليديّة من خمسة أزواج من المعلّمين، بدوا على مثال هلّال وشمّاي.

فإن كنّا لا نكاد نعرف شيئًا عن حياة شمّاي، إلّا أنّ المعلومات

السيرويّة وافرة في ما يتعلّق برابي هلّال. عاش الاثنان في حقبة مفصليّة بالنسبة إلى العالم اليهوديّ، في فلسطين، في زمن هيرودس الأكبر (٣٧-٤ ق.م.). تجاه هذا الملك المستبدّ والدمويّ، تساءل عدد من اليهود عن السلوك الذي يجب أن يسلكوه تجاه السلطة السياسيّة. أخذت مدرسة شمّاي باختيار المقاومة والسلاح ضدّ رومة. أمّا تلاميذ هلّال فاختاروا الموقف المسالم إلى آخر حدود المسالمة.

إعتبر التقليد هلّال من نسل داود. جاء من بابلونية، ودرس لدى شَمَعْيا وأبطاليون. وبما أنّه كان وحده مَن يستطيع أن يقدّم حلًّا لمسألة سلوكيّة، قال التقليد: أُعطِي حالًا المقام الأوّل ودُعي ناسي (أي الأمير، رئيس المجلس الأعلى؛ تلمود بابل، الفصح ١٦ ب). ولكنّ المشناة (حججيه ٢: ٢) تمنح شمّاي الرئاسة: «دخل شمّاي وقال: «يجب أن لا نفرض». فقال هلّال: «يجب أن نفرض». وظلّ هذا التعارض قائمًا بين المدرستين طوال قرن من الزمن.

إذا عدنا إلى التاريخ، رأينا أنّ مدرسة شمّاي ضمّت عددًا كبيرًا من التلاميذ تفوّق على عدد تلاميذ هلّال. ولكنّ دمار أورشليم سنة ٧٠ بدّل أمور بعد أن أقرّ حكماء يَبْنَة (على الشاطئ الفلسطينيّ): «هذه وتلك هي كلمات الله الحيّ، ولكنّ القاعدة تكون موافقة لرأي هلّال» (تلمود أورشليم، البركات ١: ٤). وعكست كلّ مدرسة شخصيّة مؤسّسها. بحسب تلمود بابل (نزير ٥٣أ)، كان شمّاي قاسيًا متطلّبًا ورافضًا أيّة مساومة. نقرأ في المشناة ما يلي: «تُعفى النساء والخدم والأطفال من «سوكه» (أي الخيمة والكوخ في عيد الأكواخ أو المظالّ)... ويُروى أنّ كنّة شمّاي القديمة ولدت طفلًا ذكرًا، ففتح جزءًا من السقف ووضع ورق الأشجار فوق سرير المولود حديثًا» (سوكه ٢: ٨).

أمّا هلّال الذي خرج من عائلة بابلونيّة غنيّة، فقد بدا متواضعًا، سخيًّا، بسيطًا في طريقة عيشه. وهناك أكثر من خبر يتحدّث عن صلاحه وتواضعه. يروي تقليد أورشليم (فيثة ٨: ٧) أنّ هلّال قدّم لأحد الفقراء

فرسًا للعمل، كما قدّم له عبدًا ليخدمه. ويروي تلمود بابل المشهد التالي: «يُروى عن هلّال القديم، أنّه اشترى مطيّة ليعطيها لفقير من أصل نبيل، وعبدًا يركض أمامه. وفي يوم من الأيّام، لم يجد هلّال مَن يركض أمام هذا الفقير، فركض هو أمامه مسافة ثلاثة أميال» (كتوبوت ٦٧ ب).

جاءت المواقف متعارضة بين هذين المعلّمين. وقد أوردت المشناة (الفصح ٨: ٨) مثلًا حول عيد الفصح: «تقول مدرسة شمّاي عن الشخص الذي اهتدى ليلة الفصح: ليغتسل في حوض طقسيّ، وفي الليل يأكل حَمَل الفصح». أمّا مدرسة هلّال فقالت: «وضعُ الشخص الذي يُختن هو وضع مَن خرج من القبر». هذا يعني أنّه نجس فلا يحقّ له أن يشارك في حمل الفصح. كيف نفسّر هذين الموقفين؟ رفضت مدرسة شمّاي كلّ تساهل على مستوى الطهارة ومراعاة السبت، لهذا، بدت متطلّبة فيما يختصّ بالاهتداء إلى الله. ولكن حين يُتمّ المرتدّ حديثًا سيرةَ الدخول في العالم اليهوديّ، فهو ينعم بما يُمنح لأفقر الفقراء.

ب - يوحنّان بن زكّاي

بعد دمار هيكل أورشليم في الثلاثين من آب سنة ٧٠، قام ربّان (معلّمنا) يوحنّان بن زكّاي الذي يُعتبر مؤسّس اليهوديّة الرابّينيّة، فجمع حوله المؤمنين المشتّتين. عاش هذا القائد الروحيّ العظيم في اليهوديّة وفي الجليل قبل كارثة سنة ٧٠ وبعدها. إنتمى إلى الجيل الأوّل بين الردّادين أو تنائيم، فنقل الأقوال التي تعلّمها من معلّميه.

يروي التقليد أنّ رابّي يوحنّان عاش ١٤٠ سنة: كرّس منها ٤٠ للدرس و٤٠ للتعليم. وتورد المشناة أمرين جعلا له مكانته في الجليل. زاره رابّي حنينة بن دوسه. فطلب إليه يوحنّان أن يشفي له ابنه. فعل حنينة كما فعل إيليّا مع ابن الأرملة فاستجيب (تلمود بابل، بركوت ٣٤ ب). وفي السنة ٣٠، أي ٤٠ سنة قبل دمار الهيكل، فُتحت فجأة أبواب الهيكل مع أنّه يجب أن تكون مغلقة، فوبّخها ربّان يوحنّان قائلًا: «يا معبد، يا معبد، لماذا تلقي الرعب؟ أنا أعرف أنّك في النهاية ستدمّر» (يوما ٣٩ ب).

أصلح يوحنّان عددًا من الشرائع البيبليّة بعد أن اعتبر أنّها لم تعد تتوافق والظروف. فالتوراة توضح القواعد التي يُعمل بها حين تُوجد جثّة رجل قُتل ولم يُعرف قاتله. يجب على شيوخ أقرب مدينة أن يكسروا رقبة عِجْلَة (تث ٢١: ١-٧). ففي زمن كثُرت الجرائمُ وظلّ القاتلون مجهولين، اعتبر يوحنّان أنّ هذه القواعد لا تطبَّق. فألغاها. ونقول الشيء عينه في الشرائع التي تتحدّث عن امرأة ظنّها زوجها زانية. يجب أن تخضع لحكم الله في المياه المرّة (عده: ١٢: ٣١). تقول المشناة: «حين كثر عدد الزناة، توقّف طقس المياه المرّة، فألغاه ربّان يوحنّان بن زكّاي». إعتبر هذا الرابّي الحكيم أنّ كلّ هذا التشريع لا معنى له إلّا إذا كان الرجل بريئًا.

وما ثبّت سلطة يوحنّان هو حكمته ونشاطه الواسع. وازداد تأثيره أبعد من حلقة تلاميذه. في أثناء الثورة اليهوديّة على رومة، رفض هذا المعلّم) موقفَ الغيورين وما فيه من جذريّة متطرّفة. ودلّت خطبه على خيار السلام والامتناع عن الحرب. فترجّى مفاوضات تُنهي هذه الثورة، وتمنّى أن تنجو أورشليم من الدمار. وظلّ يصارع حتّى اللحظة الأخيرة في هذا الاتّجاه. ولمّا رأى أنّ كلّ أمل ضاع، ترك المدينة المقدّسة.

وحين دمِّر الهيكل، تأثّر يوحنّان في أعماقه واضطرب. فظلّ جالسًا يتطلّع إلى أسوار أورشليم... ترجّى، انتظر المعجزة. ولكنّ المعجزة لم تحصل. وحين علم أنّ الهيكل دمّر والمعبد احترق، قام فمزّق ثيابه ونزع العصائب التي تحوي كلمات الله. ثمّ عاد فجلس، وأخذ يبكي. هذا ما يروي عنه رابّي ناتان. هنا لا ننسى ما تقول المشناة في العالِم الذي «يستند إلى ثلاثة عناصر: التوراة، الهيكل، الصدقة» (الآباء ١: ٢). هذا القول هو أكثر من رمز. فحتّى دمارِ الهيكل، تنظّمت الحياة اليهوديّة كلّيا حول المعبد مع صلوات يوميّة تقابل ذبيحة الصباح وذبيحة المساء. ثمّ إنّ الأعياد الكبرى (الفصح، العنصرة، المَظالّ) فرضت على المؤمنين المجيء إلى الهيكل، والمصالحة بين الله والخاطئ تمرّ في ذبيحة تقدَّم في الهيكل. وهكذا كان دمار هيكل أورشليم بيد الرومان ضربة حطّمت كلّ

أركان الديانة اليهوديّة. فعرف يوحنّان بن زكّاي كيف يوجّه هؤلاء الذين تاهوا فما عادوا يعرفون أين يسيرون.

روى عنه رابّي ناتان ما يلي: «كان ربّان يوحنّان بن زكّاي يجول يومًا في خرائب أورشليم يتبعه رابّي يشوع بن حنانيا. فلمّا رأى رابّي يشوع دمار الهيكل، صاح: ويل لنا بسبب هذا المعبد الذي دمِّر، وهذا المكان الذي استعمل للتكفير عن خطايانا! فأجابه المعلّم: لا تحزن، يا ابني، كثيرًا، لأنّنا نمتلك وسيلة فاعلة مثل الهيكل. قال: وما هي؟ فأجابه: الصدقة والإحسان. فهذا هو تعليم النبيّ هوشع يقول: أريد الرحمة لا الذبائح (هو ٦: ٦). وقال سفر المزامير: ما أظنّ هو أنّ العالَم يعاد بناؤه بالرحمة» (٨٩: ٣).

لا نظنّ أنّ ربّان يوحنّان تمنّى زوال الذبائح. ولكنّه أراد ممارسة الشريعة في غياب الهيكل، ففسّر النبوءة بالمعنى الحرفيّ. ورغم قساوة معاملة الرومان للناس، لم يبدّل يوحنّان قناعاته تجاههم. قرأ أم ١٤: ٣٤: «العدل يرفع الشعب وصدقة الأمم تكفير»، فعلّم قائلًا: «كما أنّ الذبيحة التكفيريّة تؤمّن التكفير عن إسرائيل، فالعدلُ يؤمّن التكفير عن شعوب العالم».

شكّ ربّان يوحنّان في نهاية حياته في أساس تعامله مع الرومان. وحين جاءه تلاميذه لكي يزوروه، بكى وأعلن: «أمامي طريقان. واحد يقود إلى عدن والآخر إلى جهنّم. لست أدري في أيّ طريق سأُدفع. فكيف لا أبكي»؟ وفي آخر لحظات حياته، رأى خيال حزقيّا، ملك يهوذا والمصلح الدينيّ الذي توفّي سنة ٦٨٧ ق.م.، والذي كان قريبًا منه بالروح. فقال: «قدّموا مقعدًا لحزقيّا، ملك يهوذا، فها هو قد وصل». وكانت تلك آخر كلماته.

ج - رابّي عَقيبه بن يوسف

لم يكن هذا المعلّم من أصل يهوديّ. بل اهتدى إلى الإيمان، أو هو جدّه الذي اهتدى. عاش ١٢٠ سنة مثل هلّال القديم، فانقسمت حياته

ثلاثة أقسام: الجيل، الدرس، التعليم. قد يكون وُلد في العام ٥٠ ب.م. وقبل دمار أورشليم بعشرين سنة تقريبًا.

هذا الرجل التقيّ ظلّ أميًّا سنوات عديدة. وقال عن نفسه فيما بعد، وحين كان يعلّم، إنّه كان جاهلًا وكان يحتقر الحكماء: «حين كنت من شعب الأرض (= جاهلًا)، كنت أقول: لو كان بين يديّ حكيم لعضضته كما يفعل الحمار» (تلمود بابل، الفصح، ٤٩ ب).

بدأ رابّي عَقيبه يَدْرُس وهو ابن أربعين سنة. ويؤكّد التقليد أنّه تعلّم الحروف الأبجديّة مع ابنه. مضى إلى أكاديميّة اللدّ، ودرس لدى رابّي أليعازر بن هِرقانوس، ورابّي يشوع بن حنانيا، ورابّي ناحوم الغمزاوي. وقد قال فيه رابّي يوحنّان بن زكّاي: «بئر راسخة لا تُفقد نقطة منها» (المشناة، الفصح ٨: ٨).

في العام ٧٥، بدأ رابّي عَقيبة يدرّس. وسنة ٩٥ ترأّس أكاديميّة بني براك (في جوار يافا). ولكنّ التمرّس بالتوراة سيمتدّ طويلًا في حياته. يروي تلمود أورشليم (الفصح ٦: ٣) أنّ معلّم عقيبة ظلّ يتجاهله. «طوال ثلاث عشرة سنة، جاء رابّي عقيبة إلى مدرسة رابّي أليعازر الذي لم يلاحظه. وتكلّم عقيبة للمرّة الأولى أمام رابّي أليعازر. عندئذٍ قدّم رابّي يشوع بن حنانيا بسخريّة هذه الآية المأخوذة من سفر القضاة ٩١: ٣٨ لرابّي أليعازر: «هذا هو الشعب الذي كنتَ تزدريه. فاذهب الآن وتبارز معه»! وتقدّم رابّي عقيبة بسرعة، فصار شخصًا لا يُستغنى عنه. ونحن نقرأ عنه في مدراش نشيد الأناشيد (١: ٢) الخبر التالي: «وصل رابّي عقيبة يومًا إلى المدرسة متأخّرًا. فجلس في الخارج. وطُرح سؤال سلوكيّ (هلكه) في القاعة. حينئذٍ قال التلاميذ: «هلكه في الخارج». وطُرح سؤال آخر. فصاح التلاميذ: «التوراة في الخارج». وحين طُرح السؤال الثالث، أعلنوا بكلام واضح: «رابّي عَقيبة في الخارج». فأفسحوا له، فجاء وجلس».

أفرد التقليد لهذا المعلّم مكانة خاصّة. أكّد أنّ التوراة كانت منسيّة

في إسرائيل بغياب عَقيبة، وأنّه حفر التوراة (كما تحفر البئر) لكي يَلجِها. بل إنّ التقليد قابل رابّي عَقيبة بموسى. وقد أورد تلمود بابل (منحوت ٢٩ ب) هذه الأقوال عن رابّي أليعازر: «حين صعد موسى، في أثناء الوحي، إلى أعالي السماء، رأى الله منشغلًا في وضع أكاليل على حروف التوراة. فسأله: «يا سيّد العالم، لمَن هذه الأكاليل»؟ فأجاب الله: «سيكون في الأجيال الآتية رجل اسمه عَقيبة بن يوسف وهو سيستخرج من كلّ شخطة قلم جبالًا من الهلكوت» (الأمور السلوكيّة). حينئذٍ قال موسى: «أرني إيّاه»! فأجاب الله: «إلتفت إلى الوراء وانظر». فمضى موسى وجلس في مدرسة رابّي عَقيبة، في الدرجة الثامنة. ولكنّه لم يفهم شيئًا ممّا يعلّمونه».

بعد الثورة اليهوديّة الثانية (١٣٢-١٣٥)، أُوقف رابّي عَقيبة، وعُذّب، وفي النهاية قتله الرومان لأنّه ظلّ يعلّم التوراة متجاوزًا قانون الدولة. ولمّا سُئل عن موقفه تجاه السلطة، أجاب بمثَل أشخاصُه من الحيوانات: كان ثعلب يسير بمحاذاة النهر. فسأل السمكات عن اضطرابها وعرض عليها أن تلجأ إلى الشاطئ هربًا من الشباك. فأجابته السمكات: «لست بفطن. بل أنت بليد. فإذا كان الخَطر يحيق بنا في عنصر يحيينا، فكم يكون في عنصر نجد فيه الموت». واستخلص رابّي عَقيبة: «ذاك هو وضعنا أيضًا: إذا كانت لنا أسباب بها نخاف لأنّنا ندرس التوراة التي قيل فيها إنّها حياتك وطول عمرك (تث ٣٠: ٢)، فما تكون حالنا إن توقّفنا عن دراستها» (تلمود بابل، بركوت ٦١ ب).

وتحدّث تلمود بابل في موته بهذا الكلام: «لمّا خرجوا برابّي عَقيبة لينفّذوا فيه حكم الإعدام، كانت الساعة ساعة الصلاة. وإذ كانوا يمزّقون لحمه بمناديف من حديد، اهتمّ بتقبّل نير ملكوت السماء بحبّ. فسأله تلاميذه: «إلى متى ستظلّ تصلّي، يا معلّمنا؟» فقال: «كلّ حياتي انشغلت بهذه العبارة: أحبّ الربّ بكلّ نفسك (تث ٦: ٤)، أي في ذبيحة حياتك. وتساءلت متى أستطيع أن أخضع لهذه الوصيّة. والآن قد صارت بمتناول يدي. فلماذا لا أفعل؟» وإذ كان يقول «واحد» (في عبارة: الربّ إلهنا ربّ واحد) أسلم الروح وهو يتلفّظ بهذه الكلمة».

٣ - التلمود وعلاقته بالمسيحيّة

إنطلقنا من التعليم الشفهيّ بجذوره، وتحدّثنا في المعلّمين وما تركوه من تعليم يرتبط بالحياة في العالم اليهوديّ، فوصلنا إلى ما يجمع كلّ هذا الغنى، وصلنا إلى التلمود في نسختيه، نسخة أورشليم ونسخة بابل. وننهي كلامنا بعلاقة التلمود بالمسيحيّة.

أ - تلمودان

أوّلًا: تلمود أورشليم

نشير هنا أوّلًا إلى أنّ تلمود أورشليم لم يُكتب في أورشليم بعد أن مُنع اليهود من الإقامة فيها منذ قرار هدريانس، الأمبراطور الرومانيّ، العامَ ١٣٥. بل كُتب في فلسطين، وفي أرض الجليل. دوّن بالعبريّة وبآراميّة فلسطين. على المستوى الأدبيّ، ظلّ هذا العمل غير مكتمل. فنحن أمام تفسير جزئيّ للمشناة، تفسير تسعة وثلاثين مقالًا من أصل ثلاثة وستّين.

متى دوّن هذا التلمود؟ لا إشارة تاريخيّة إلى تدوينه، ولكنّ بعض الأحداث تتيح لنا أن نتعرّف زمن صياغته. يُذكر بين آخر المعلّمين الذين عملوا فيه، منا الثاني بَر يوُما الذين عاش في صِفّورية وانتمى إلى جيل القوّالين (أموراثيم) الخامس (٣٥٠-٣٧٥). ويُذكر على المستوى التاريخيّ تمرّدٌ على شقيق الأمبراطور يوليانس سنة ٣٥١. وفي مقال ندريم (٣: ٢، ٣٧) نجد تلميحًا إلى حملة الأمبراطور يوليانس (٣٣١-٣٦٣) على بلاد فارس. كلّ هذا يتيح لنا أن نحدّد نهاية تدوين تلمود أورشليم في السنوات الأخيرة من القرن الرابع، حوالى العام ٣٩٥.

ويُذكر في هذا التلمود عددٌ من الأمكنة. إنّ لفظة «هُنا» وعبارة «المعلّمون الذين من هنا» تشيران إلى مدينة طبريّة. وبشكل عامّ، المعلّمون المذكورون هنا ينتمون إلى الأكاديميّة الكبرى في هذه المدينة التي كانت الكرسيّ «البطريركيّ» في القرن الرابع. ولكنّ نظام «الأضرار»

لا يذكر إلّا معلّمين ارتبطوا بأكاديميّة قيصريّة وانتموا إلى جيل الأمورائيم الرابع (٣٢٠-٣٥٠). هذا النظام الذي يتوسّع فقط في المقالات الأولى، يشكّل الأساس الأقدم لهذا التلمود. تَوجَّهَ إلى قضاة معلّمين في جماعة قيصريّة اليهوديّة، بعد أن نقصهم التكوينُ العلميّ على المستوى السلوكيّ.

تشكّل نهاية القرن الرابع حقبة مضطربة في ما يختصّ بيهود فلسطين. فالتمرّد على السلطة الرومانيّة سنة ٣٥١ أدّى إلى ردّات فعل عنيفة: إجتاح الجيش الرومانيّ طبريّة وصِفّورية ولُدّة، حيث كانت الأكاديميّات المهمّة. عند ذاك نزح المعلّمون في كثرتهم إلى بابل. في ذلك الوقت، صارت المسيحيّة الديانة الرسميّة في الأمبراطوريّة، وحاولت أن تفرض نفسها على اليهود. ولمّا ألغت الأمبراطوريّة اليهوديّة، جعلت العالم اليهوديّ الفلسطينيّ يؤول إلى الانحطاط.

في هذه الظروف الصعبة نفهم أنّ تلمود أورشليم ظلّ ناقصًا، وأنّه لم يصل إلينا منه سوى مخطوط واحد كامل تضمّن ٦٧٢ ورقة (في جزئين) وانتهى العمل منه سنة ١٢٨٩. ولكنّ العمل في التلمود تواصل بواسطة الذين ذهبوا إلى منفى بابل، فكان تلمود بابل.

ثانيًا: تلمود بابل

: يشكّل تلمود بابل التفسير البابليّ للمشناة. يتضمّن ٢٩٠٠ ورقة. ومع ذلك، فهو لا يفسّر تفسيرًا كاملًا سوى ٣٦ مقالًا. ولكنّه اختلف عن تلمود أورشليم في أنّه ضمّ عددًا من «المدارش». وامتدّ العمل فيه حتّى موت رابّينا الثاني سنة ٤٩٩. أمّا المعلّمون الذين أتمّوا هذا العمل فهم الفقهاء (سابورائيم، المفكّرون).

بدأ العمل رب اشي (٣٥٢-٤٢٧) رئيس أكاديميّة سورا. وجاء بعده جيلان من القوّالين. ويرى التلمود أنّ سنة ٤٩٩، سنة موت رابّينا الثاني، تختتم حقبة القوّالين وبالتالي التشريع الرابّينيّ. غير أنّ أعمال التدوين والتنسيق والتصحيح، ظلّت تتواصل حتّى منتصف القرن السابع. وتابعت مراكز الدراسات في بابل قراءتها للنصوص حتّى القرن التاسع مع العظماء

والعباقرة (جئونيم) الذين وصل تأثيرهم إلى أفريقيا الشماليّة وأوروبّا. وما عتّم تلمود بابل أن فرض نفسه على حساب تلمود أورشليم.

هذا التلمود الذي يضمّ مليونين ونصف المليون من الكلمات (أي ٥٨٩٤ صفحة)، قد نسخه الكتبة أكثر من مرّة. فكانت أخطاء حاول راشي (١٠٤٠-١١٠٥، عاش في فرنسا)، أن يصحّحها. وفي القرن الحادي عشر، بدأت الكنيسة تهتمّ بالكتابات التلموديّة التي اعتُبِرت تجديفًا على الإيمان المسيحيّ. وبناء على طلب البابا غريغوريوس التاسع، حكم ملك فرنسا (لويس التاسع، ١٢١٤-١٢٧٠) على تلمود باريس سنة ١٢٤٠. وهكذا أحرقت المخطوطات في باريس سنة ١٢٤٢.

وطبع التلمود في البرتوغال في نهاية القرن الخامس عشر. أمّا النسخة الكاملة فقد طبعت في البندقيّة (إيطاليا) بين سنة ١٥٢٠ و١٥٢٣. وتوالت الطبعات. تُرجم كلّه إلى الإنكليزيّة وإلى الألمانيّة، وقسم منه إلى الفرنسيّة.

ب - الرقابة المسيحيّة

حين طُبع تلمود بابل في البندقيّة، كان صاحب المطبعة شخصًا مسيحيًّا هو دانيال بومبرغ. وهكذا نفهم أن تكون الرقابة المسيحيّة قد أزالت مقاطع تتحدّث عن يسوع، أو تلمّح إلى أحداث حصلت منذ بداية الطباعة.

صورة يسوع سلبيّة في التلمود الذي يتحدّث عنه مرارًا كعلّامة تتلمذ على يد الرابّيّين (المعلّمين) الكبار في عصره. وهناك مقاطع تعني أوّل ما تعني مريم، أمّ يسوع. تُسمّى مرارًا: مريم، مصفّفة شعر النساء. وتُعتبر امرأة زانية. نقرأ في شبت ١٠٤ ب ما يلي: «ورد أنّ رابّي أليعازر سأل الحكماء: «أما حَمَل بن ستادا من مصر رقيات في شقّ من لحمه»؟ فأجابوه: «كان مجنونًا. ونحن لا نقدر أن نستنتج براهين من مجنون. كان بن ستادا ابن بنديرا. فقال رابّي حسدًا: كان الزوج ستادا، والعشيق بنديرا بن يهودا. وستادا كانت أمّه. أمّه هي مريم مصفّفة شعر النساء. وكما يقال

في بومباديتا: كانت خاتنة لزوجها».

وهناك نصوص أخرى تقارب العشرة تورد الكلام عينه. بن ستادا هو يسوع، ابن الزنى. وهناك مقطع آخر يحدّد أنّ يسوع كان عابد أوثان وقد عُلّق ليلة الفصح. نقرأ في سنهدرين ٦٧ أ: «لا تُخفى الشهادات التي تتّهم سائر الذين استحقّوا حكم الإعدام كما تحدّده التوراة ما عدا هذا. فكيف يتصرّفون في هذه الحالة؟ يشعلون له سراجًا داخل البيت ويضعون الشهود في الخارج بحيث يرونه ويسمعونه وهو لا يراهم. قال له هذا الرجل: كيف تقدر أن نترك إلهنا الذي هو في السماء ونستسلم لعبادة الأصنام؟ إن عاد عن غيّه، فلا بأس. ولكن إن أكّد: هذا ما يجب أن نصنع، فلا بأس لنا. والشهود الذين سمعوا في الخارج قدّموه إلى المحكمة ورجموه. وهذا ما فعلوا مع بن ستادا في اللدّ، فعلّقوه ليلة الفصح».

وهناك سلسلة أخرى من النصوص تتحدّث عن يسوع كساحر وعابد أوثان. «علّم المعلّمون: لتُبعِد يسراك دومًا ولتقرّب يمناك، لا مثل أليشاع الذي أبعد بيديه جيحزي، ولا مثل رابّي يهوشع بن فرحيا الذي أبعد يسوع بيديه جيحزي كما كتب (٢ مل ٥: ٢٢ ي)... ما هي المشكلة مع رابّي سمعان بن فرحيا؟ حين قُتل الملك ينا المعلّمين، مضى رابّي يهوشع بن فرحيا ويسوع من إسكندريّة مصر. ولمّا عاد السلام، أرسل إليه سمعان بن شته رسالة: منّي أنا أورشليم المدينة المقدّسة إليكِ أنتِ إسكندريّة مصر أختي. أقام زوجي عندك وأنا في كآبة. قام يهوشع ومضى. فتقدّمتْ إليه وأضافته أحسن ضيافة: جميلة ضيافة المضيفة! فقال يسوع: ليت عينيها جميلتان، رابّي. فأجابه: يا رديء، أهذه هي اهتماماتك؟ إجعله جانبًا وأرفق هذا الإعلان بأربع مئة نفخة بوق. وكم من مرّة تقدّم إليه يسوع قائلًا: إقبلني. أمّا هو فما عبأ به. وإذا كان يومًا يتلو «شماع» (تث ٤: ٤)، تقدّم إليه يسوع وهو يظنّ أنّه يستقبله من جديد. فأشار إليه يهوشع بيده. ظنّ يسوع أنّه يبعده، فخرج ونصب حجرًا وسجد أمامه. فقال له يهوشع: إندم. فأجابه: هذا هو التقليد الذي تسلّمته منك: لا تعطى وسائل الندامة لمَن يخطأ ويجرّ آخرين كثيرين إلى الخطيئة! فقد قيل إنّ

يسوع مارس السحر، وطغى إسرائيل وأضلّه» (سنهدرين ١٠٧ ب).

وهناك نصوص عديدة تلوم يسوع لأنّه حسب نفسه إلهًا. نقرأ في تلمود أورشليم: «قال رابّي أباهو: إن قال إنسان أنا الله، فهو يكذب. وإن قال أنا ابن الإنسان فسيندم. وإن قال أنا أصعد إلى السماء، فهو يقول ولكنّه لن يتوصّل». ونقرأ في مدراش يعود إلى القرون الوسطى: «قال رابّي حيّا بر أبّا: إن قال لك ابن الزانية هناك إلهان، فقل له: أنا إله البحر الأحمر، أنا إله موسى. وقال رابّي حيّا بر أبّا: إن قال لك ابن الزانية هناك إلهان فقل له: ما كُتب أنّ إلهَيْن تكلّما معكم وجهًا لوجه، بل الله تكلّم معكم وجهًا لوجه» (تث ٥: ٤).

وأخيرًا، نشير إلى نصّ يرد في المشناة فيقابل يسوع مع بلعام (سنهدرين ١٠: ٢). تعلّمنا المشناة أوّلًا أنّه لن يكون لبلعام حقّ في العالم الآتي. وتقول: «هناك ثلاثة ملوك وأربعة أفراد لن يكون لهم نصيب في العالم الآتي. الملوك الثلاثة هم يربعام وأخاب ومنسّى. وقال رابّي يهودا: سيكون ليربعام نصيب في العالم الآتي لأنّه قيل فيه: صلّى فاستجاب الله له، وسمع دعاءه، وأعاده إلى أورشليم لكي يمارس الملك (٢ أخ ٣٣: ١٣). وكان اعتراض: أعاده لكي يمارس الملك، لا ليمتلك الحياة في العالم الآتي. أمّا الأفراد الأربعة فهم: بلعام، دوئيج، أحيتوفل، جيحزي».

وجاءت مقاطع تدلّ إلى أنّ الهراطقة لا يتعدّى عمرهم الثلاث وثلاثين سنة. ونحن نقرأ في تلمود بابل (سنهدرين ١٠٦ ب) ما يلي: «قال هذا الهرطوقيّ لرابّي حنينا: أتعرف عمر بلعام؟ فأجابه: لم يُكتب شيء في هذا المجال. ولكن ممّا كتب بأنّ رجال الدم والغشّ لن يصلوا إلى نصف أيّامهم (مز ٥٥: ٢٤)، نستنتج أنّه كان ابن ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين سنة. فقال الهرطوقيّ: نعمّ الجواب. فقد رأيتُ كتابًا يتعلّق ببلعام كُتب فيه: بلعام العاجز كان ابن ثلاث وثلاثين سنة حين قتله اللصّ فِنْحاس. قال رابّي يوحنّان: ما وصل دوئيج وأحيتوفل إلى منتصف أيّامهما. وعلّم

(الأقدمون): ما أدرك رجال الدم والغشّ منتصف أيّامهم: فسنوات دوئيج لا ترتفع بمجملها فوق الثلاث والثلاثين سنة، وسنوات أحيتوفل فوق الثلاث والثلاثين. فمَن سيبقى على قيد الحياة بعد أن يجعل نفسه الله (عد ٢٤: ٢٤)؟ وقال راش لخيش: مَن يقوم (من الموت) وهو يدعو اسم الله يؤلّه نفسه؟ وأيضًا: مَن يقوم وهو يدعو اسم الله؟ أي ويل لهؤلاء الرجال الذين يقومون (من الموت) ويرفعون نفوسهم في هذا العالم، وينزعون نير الشريعة عن رقابهم ويحوّلون أنفسهم».

خاتمة

تلك هي نظرة سريعة إلى التلمود منذ جذوره الأولى وارتباطه بالتوراة الشفهيّة تجاه التوراة الخطّيّة أو المكتوبة التي نجدها في أسفار العهد القديم. تَحَدَّثْنا في مضمون هذا الكتاب الذي يشكّل اليوم في نسخته البابليّة عشرات الأجزاء، ويضمّ الأمور التشريعيّة والسلوكيّة والإخباريّة. وأشرنا إلى ما قام به الردّادون والقوّالون وصولًا إلى الفقهاء والعباقرة. تراث امتدّ على قرون عديدة، وما زال اليهود يدرسونه حتّى الآن بمحاذاة الكتاب المقدّس. وانتهينا بما يقول التلمود في يسوع ومريم العذراء. ما أردنا أن نطيل هذا القسم الأخير وما فيه من تجديف على اسم المسيح وأمّه الكلّيّة القداسة. فنحن لا نعجب من ذلك. فمنذ أيّام يسوع، سمّاه اليهود بعل زبول رئيس الشياطين. واعتبروا قيامته خدعة قام بها الرسل وسرقوا جثمانه في الليل، ساعة كان الحرّاس نائمين. وفي التلمود وجدنا النعوت المشينة بحقّ يسوع المسيح وأمّه. أتراهم يدرون ما يفعلون؟ لهذا قال فيهم يسوع: سيُترك لكم بيتكم خرابًا. واعتبرت الكنيسة الأُولى أنّ ما حصل لأورشليم كان عقابًا لشعبها لأنّهم لم يؤمنوا بيسوع المسيح. وكان كلام آباء الكنيسة قاسيًا تجاه الشعب اليهوديّ، فتعجّب البحّاثة ولا سيّما في أوروبّا، ونسوا أنّ الآباء أرادوا أن يردّوا على الهجمة اليهوديّة التي كانت السبب في اضطهاد المسيحيّين على أيدي ملوك الفرس، سواء داخل العالم السريانيّ أو داخل سورية ولبنان وفلسطين ساعة أُخذ الصليب

المقدّس. حين نُشر التلمود في بداية الطباعة، حذفت الكنيسة كلّ ما يمسّ شخص يسوع ومريم العذراء. ولكن تُهيّأ الآن طبعةٌ جديدة تعاد إليها النصوص التي أُلغيت. لا شكّ في أنّ العلم يحترم النصوص القديمة مهما تحمل من حقارات. ولكن أترى مثل هذه النصوص تشرّف اليهود الذين يحاولون الحوار مع المسيحيّة.

المراجع

I. N. EPSTEIN, *The Babylonische Talmud translated into English with Notes, Glossary and Indices*, London, 1948-52.

C.Y. LAMBERT, *Le Talmud et la littérature rablinique*, D.D.B., Paris, 1997.

A. STEINLATZ, *Introduction au Talmud*, Albin Michel, Paris, 1987.

H. L. STRACK, G. STEMBERGER, *Introduction au Talmud et au Midrash*, tr. de M.R. Hayoun, Cerf, Paris, 1986.

B. TOUATI, *Prophètes talmudistes, philosophes*, Cerf, Paris, 1990.

E. URBACH, *Les sages d'Israël*, Cerf, Paris, 1996.

D. WRIGHT, *The Talmud*, London, 1932, tr. fse, Paris, 1933.

صدر عن دار المشرق